الى أن ينتهي الى النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك يحصل للصحابة والتابعين والمجتهدين في كل عصر بعدد الاجور التي ترتبت على فعلهم وجميعه بجملته حاصل للنبي صلى الله عليه وسلم قال الشيخ عزالدين بن عبد السلام في مختصره بداية السول في تفضيل الرسول ما من درجة علية ومرتبة سنية نالها أحد من أمته بارشاده ودلالته الا وله مثل أجرها مضموما الى درجته صلى الله عليه وسلم انتهى وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم من دل على خير فله مثل أجر فاعله فما يفعله الامراء والملوك والسلاطين من العدل والاحسان ويقتدى بهم رعاياهم فيه من أمور الدنيا والدين تضاعف به أجورهم الى يوم الدين ويكون مثل ذلك أضعافا مضاعفة لخاتم الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه والتابعين

الباب الثاني في الحكم

(في طرف من الحكايات والآداب الصادرة عن أولى الالباب والاحساب)

(اعلم) ان في الحكايات والاخبار سلوة للنفوس وآدابا نافعة للرئيس والمرؤس والقلوب ترتاح اليها من شجونها والآذان تصغي لسماع طرفها وفنونها والوحيد يأنس بمطالعتها والجليس ينبسط بمذاكرتها ومحاضرتها والطباع تجم بها من مللها ويذهب عنها اقلة نشاطها وكثرة كسلها والملوك يتحفون بها وينال الجاه والرفعة منهم بسببها (قال عمر بن الخطاب) عليكم بطرائف الاخبار فانها من علم الملوك والسادة وبها تنال المنزلة والحظوة منهم (قال علي رضي الله عنه) قيمة كل امرئ ما يحسن وقال بعض ملوك الهند لبنيه أكثروا من النظر في الكتب وازدادوا في كل يوم حرفا فان ثلاثة لا يستوحشون في غربة الفقيه العالم والبطل الشجاع والحلو اللسان الكثير مخارج الرأي وقيل للمأمون ما أكثر الاشياء قال التنزه في عقول الناس يعني قراءة أقوالهم قال محمد بن بشير

لله من جلساء لا جليسهم * ولا خليطهم للسوء مرتقب
لا بادرات الاذى يخشى رفيقهم * ولا يلاقيه منهم منطق ذرب
أبقوا لنا حكما تبقى منافعها * أخرى الليالي على الايام والحقب
ان شئت من محكم الآثار رفعها * الى النبي ثقاة خيرة نجب
أو شئت من عرب علما بأولهم * في الجاهلية تنبيني بها العرب
أو شئت من سيد الاملاك من عجم * تنبي وتخبر كيف الرأي والادب
حتى كأني قد شاهدت عصرهم * وقد مضت دونهم من دهرنا حقب
فصرت في البيد مسرورا تحدثني * من علم ما غاب عنا في الورى الكتب
فردا تخبرني الموتى وتنطق لي * فليس لي في أناس غيرهم أرب
ما مات قوم اذا أبقوا لنا أدبا * وعلم دين ولا فاتوا ولا ذهبوا

سأل الرشيد يوما الاصمعي عن انساب بعض العرب فقال على الخبير بها سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله حسك أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا فكان الفضل على قلة علمه أعرف بما يستعمل فى مخاطبة الخلفاء من الاصمعي مع امامته وليس يكمل أدب المرء حتى يعرف المثل السائر والبيت النادر وما يحكى عن أهل العصور من الاخبار العجيبة وما وقع لهم من الالفاظ البليغة والمعانى الغريبة ففى ذلك العلم بالامور والعقل المكتسب والادب الصادر عن ذى المروءة والحسب لم تزل الحكايات والاخبار تذكر فى معرض الاعتبار وتورد موارد الاستبصار وهذا القسم لا تضبطه الفصول والابواب ولا يستوفيه مصنف فى كتاب غير أنه يأتى بما يناسب تبويبه أو يشاكل تفصيله وترتيبه وانى أذكر هنا من ذلك ما أستحسنه فى فنه وأستظرفه وأستملحه فى نوعه وأستطرفه فى فصلين اثنين بحول الله

(الفصل الاول فى الاخبار التى تتعلق بذى الامرة والسياسة)

(قال المسعودى فى كتابه عيون المعارف) مما حفظ من كلام ازدشير عند ما وضع التاج على رأسه أنه قال الحمد لله الذى خصنا بنعمه وشملنا بفوائده وقسمه ومهد لنا البلاد وقاد الى طاعتنا العباد (نحمده) حمد من عرف فضل ما آتاه (ونشكره) شكر الدارى بما منحه وأعطاه ألا وانا ساعون فى اقامة منار العدل وادرار الفضل وتشييد المآثر وعمارة البلاد والرأفة بالعباد وزم أقطار المملكة وردم ما تخرم فى سائر الايام منها فليسكن طائركم أيها الناس فانى أعم بالعدل سنة محمودة وشريعة مورودة وسترون فى سيرتنا ما تحمدوننا عليه وتصدق أقوالنا أفعالنا ان شاء الله تعالى (وكتب ازدشير) بن بابك الى الملوك الكائنين بعده الخراج عمود المملكة يكنفه نقش الرعية وحفظ الاطراف والبيضة فاختاروا للعمل عليه أولى الطبيعة الحرة وذوى العقل والحنكة وكفوهم سنى الارزاق تحسموا أنفسهم عن الارتفاق فاستعزز بمثل العدل ولا استنذر بمثل الجور (وجعل) انوشروان يوما للحكماء ليأخذ من آدابهم فقال لهم وقد أخذوا مراتبهم من مجلسه دلونى على حكمة فيها منفعة لخاصة نفسى وعامة رعيتى فتكلم كل واحد منهم بما حضره من الرأى وأنوشروان مطرق مفكر فى أقاويلهم وانتهى القول الى بزرجمهر بن البختكان فقال أيها الملك أنا جامع لك ذلك فى اثنتى عشرة كلمة قال له هات ماهن فقال أولاهن تقوى الله تعالى فى الشهوة والرغبة والرهبة والغضب والهوى فاجعل ما عرض من ذلك كله لله لا للناس والثانية الصدق فى القول والوفاء بالعدات والشروط والعهود والمواثيق والثالثة مشورة العلماء فيما يحدث من الامور والرابعة اكرام العلماء والاشراف وأهل الثغور والقواد والكتاب والخول

والخامسة التعهد للقضاء والفحص عن العمال محاسبة عادلة ومجازاة المحسن منهم باحسانه والمسيء على اساءته والسادسة تعاهد أهل السجون بالعرض لهم فيستوثق من المسيء ويطلق البرىء والسابعة تعاهد سبل الناس وأسواقهم وأسعارهم وتجاراتهم والثامنة حسن تأديب الرعية على الجرائم واقامة الحدود والتاسعة اعداد السلاح وجمع آلات الحرب والعاشرة اكرام الولد والاهل والاقارب وتفقد ما يصلحهم والحادية عشرة اذكاء العيون فى الثغور لعلم ما يتخوف فتؤخذ أهبته قبل هجومه والثانية عشرة تفقد الوزراء والخول والاستبدال بذوى الغش منهم فأمر انوشروان أن يكتب هذا الكلام بالذهب وقال هذا كلام فيه جميع أنواع السياسة الملوكية (وحدث) الفضل بن سهل قال كانت رسل الملوك اذا جاءت بالهدايا تجعل اختلافها الىّ فكنت أسأل الرجل منهم عن سيرة ملوكهم وأخبار عظمائهم فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم فقال ملك بذل عرفه وبرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة لا يطرجنده ولا تحرج رعيته سهل النوال جرىء النكال الرجاء والخوف معقودان فى يديه قلت فكيف حكمه قال يرد الظلم ويردع الظالم ويعطى كل ذى حق حقه فالرعية اثنان راض ومغتبط قلت فكيف هيبتهم له قال يتصور فى القلوب فتغض له العيون قال فنظر الىّ رسول الحبشة وأنا أصغى اليه وأقبل عليه فسأل ترجمانه ما الذى يقول الرومى فقال يذكر ملكهم ويصف سيرته فتكلم مع الترجمان بشىء فقال لى الترجمان انه يقول ان ملكهم ذو أناة عند القدرة وذو حلم عند الغضب وذو سطوة عند المغالبة وذو عقوبة عند الاجرام قد كسا رعيته جميل نعمته وخوفهم خسف عقوبته فهم يتراءونه تراءى الهلال خيالا ويخافونه مخافة الموت نكالا وسعهم عدله وردعتهم سطوته اذا أعطى أوسع واذا عاقب أوجع فالناس اثنان راج وخائف فلا الراجى خائب الامل ولا الخائف بعيد الاجل قلت فكيف هيبتهم له قال لا ترفع له العيون أجفانها ولا تتبعه الابصار انسانها كأن رعيته قطار فرفت عليهم صقور صوائد فحدثت المأمون بهذين الحديثين فقال كم قيمتهما عندك قلت ألف الف درهم قال يا فضل ان قيمتهما عندى أكثر من الخلافة أما عرفت قول على بن أبى طالب رضى الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن أتعرف أحدا من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحدا من خلفاء الله الراشدين بمثل هذه الصفة قلت لا قال فقد أمرت لهما بعشرين ألف دينار وأجعل العذر مادة بينى وبينهما فى الجائزة عن العود فلولا حقوق الاسلام وأهله لرأيت اعطاءهما ما فى الخاصة والعامة دون ما يستحقانه (سئل رجل من بنى أمية) عاقل فقيل له أخبرنا من أى شىء كان بدء زوال ملككم فقال سألت فاسمع واذا سمعت فافهم انا نشأ غلمانا بلذتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ووثقنا بوزراء آثروا هوانا فقهم وأبرموا أمورا أسروها عنا وظلمت رعيتنا

ففسدت نياتهم لنا وجدب معاشنا فخلت بيوت أموالنا وقل جندنا فزالت هيبتهم لنا واستدعاهم أعداؤنا فظافروهم علينا وكان أكبر الاسباب فى ذلك استتار الاخبار عنا (وقد قال بعض الحكماء) خير الولاة من عدل فى رعيته فيما يخصه منهم وفيما يخصهم منه فأما الذى يخصه منهم فحسن النظر لنفسه فيما يجب له عليهم من التزام طاعته فلا يبلغ فيه من العنف عليهم منزلة تحمله على الندم فى أمره والبرم لولايته ولا يبلغ بهم من التراخى والاهمال منزلة تقودهم الى الاستخفاف بأمره والاخلال بحقه وأما الذى يخصهم منه فحسن النظر لهم والرفق بهم والجرى الى مصالحهم بحسن الذب عنهم ورفع الايدى المعتدية اليهم وأخذه بالحق فيما لهم وعليهم وانتصاف المظلوم من الظالم والمساواة فى الحقائق بين القوى والضعيف والغنى والفقير حتى يعم عدله الكبير والصغير والقريب والبعيد كما قال عثمان بن عفان رضى الله عنه فى خطبته اعلموا أنه لا أحد أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه ولا أقوى من الضعيف حتى آخذ الحق له فمن الحق على من ملكه الله تعالى على بلاده وحكمه فى عباده أن يكون لنفسه مالكا وللهوى تاركا وللغيظ كاظما وللظلم كارها وللعدل فى الرضاء والغضب مظهرا وللعفو فى السر والعلانية مؤثرا فاذا كان كذلك ألزم النفوس طاعته وأشرب القلوب محبته فأشرق بنور عدله زمانه وكان الناس على أعدائه أعوانه (كتب ابرويز) لابنه يا بنى ان كلمة منك تسفك دما وكلمة تحقن دما وأمرك نافذ وكلامك ظاهر فاحترس فى غضبك من فؤادك أن يخطئ ومن لونك أن يتغير ومن جسرك أن يخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما (روى عن الرشيد) أنه أحضر رجلا يوليه القضاء فقال يا أمير المؤمنين انى لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه فقال الرشيد فيك ثلاث خلال فيك شرف والشرف يمنع أهله من الدنايا آت ولك حلم والحلم يمنعك من العجلة ومن لم يعجل قل خطؤه وأنت رجل تشاور فى أمرك ومن شاور كثر صوابه وأما الفقه فسينضم اليك من تتفقه به فولى فما وجد فيه طعن وقال بعضهم من أخلاق الوالى السعيد أن لا يعاقب أحدا وهو غضبان لان هذه حال لا يسلم معها من التعدى والتجاوز بحد العقوبة فاذا سكن غضبه ورجع الى طبعه أمر بعقوبته على الحد الذى سنته الشريعة ونقلته الملة فان لم يكن فى الشريعة ذكر عقوبة ذنبه فمن العدل أن يجعل عقوبة ذلك الذنب واسطة بين غليظ الذنوب ولينها وان يجعل الحكم عليه فيه ونفسه طيبة وذكر القصاص منه على بال (وقالت الحكماء) السياسة أن يخلط الوعد بالوعيد والعطاء بالمنع والحلم بالايقاع فان الناس لا يصلحون الا على الثواب والعقاب الاطماع والاخافة ومن أخاف ولم يوقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز فتغير الخير ما كان ممزوجا وشر الشر ما كان صرفا واذا كان الناس انما يصلحون على الشدة واللين وعلى العفو والانتقام وعلى البذل والمنع وعلى الخير والشر عاد ذلك الشر خيرا وذلك المنع عطاء وذلك المكروه نفعا

قال الله عز وجل ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب لعلكم تتقون فأسوس الناس لرعيته من قاد أبدانها بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة قال الحسن

يا ابن أبى العباس أنت الذى * سماؤه للجود مدرار
يرجو ويخشى حالتيك الورى * كأنك الجنة والنار

(وقال بعضهم) الرغبة والرهبة أصلان لكل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت أو صغرت بذلك بعث الله الرسل وأنزل الكتب وأقام الوعد مع الوعيد والثواب مع العقاب والرجاء مع المخافة والعفو مع السطوة قال عز وجل فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فكل عامل على ثقة مما وعده فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة فاطرد التدبير واستقامت السياسة لموافقتها ما فى الفطرة ومن ظن أحدا من الخلق فوقه أو دونه يصلح بخلاف ما دبرهم الله عليه خالف الرب فى تدبيره وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم قال الله تعالى فى محكم كتابه انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وتلا مطرف هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب فقال لو يعلم الناس قدر نعمة الله وعفوه وتجاوزه لقرت أعينهم ولو يعلمون قدر عذاب الله ونكاله ونقمه وبأسه مارقأ لهم دمع ولا قرت أعينهم بشئ (قال الله سبحانه) ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين فوصف فى هذه الآية منزلة القرب من البعد فذكر نفسه تبارك وتعالى بأقرب القرب ممن عبده وبأبعد البعد ممن استكبر عن عبادته (وكان أنوشروان) اذا ولى رجلا أمر الكاتب أن يضع فى كتاب العهد موضع ثلاثة أسطر فيوقع فيها بخطه سس خيار الناس بالمحبة وأمزج للعامة الرغبة بالرهبة وسس فلك الناس بالمخافة قال الشاعر

اذا كنتم للناس أهل سياسة * فسوسوا كرام الناس باللين والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا * على الذل ان الذل يصلح للنذل

لما أراد عمرو بن العاص المسير الى مصر قال لمعاوية يا أمير المؤمنين انى موصيك قال أجل فاوصنى قال انظر فاقة الاحرار فاعمد فى سترها وطغيان السفلة فاعمل فى قمعها واستوحش من الكريم الجائع ومن اللئيم الشبعان فانما يصول الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع (كان زياد) اذا ولى رجلا عملا قال له خذ عطرك وسر الى عملك واعلم انك مصروف رأس سنتك وأنت صير الى أرفع خلال فاختر لنفسك انا ان وجدناك أمينا ضعيفا استبدلنا بك لضعفك وسلمنا من معرفتنا أمانتك وان وجدناك قويا خائنا استعنا بقوتك وأحسنا عن خيانتك أدبك وأوجعنا ظهرك وشفعنا

غرمك وان جمعت الجرمين علينا جميعا جعلناعليك المضرتين وان وجدناك قويا أمينا زدنا في عملك ورفعنا ذكرك وكثرنا مالك وأوطأنا عقبك (عزل) الاسكندر عاملا عن عمل نفيس وولاه عملا خسيسا فقدم عليه بعد حين فقال له كيف رأيت عملك قال له أيها الملك انه ليس بالعمل الكبير بنبل الرجل ولكن الرجل ينبل عمله به وان كان خسيسا لحسن السيرة وانصاف الرعية (وقال بعض الحكماء) أحسن جبلة الولاة اصابة السياسة ورأس اصابة السياسة العمل بطاعة الله وفتح بابين للرعية أحدهما رأفة ورحمة وبذل وتحنن والآخر غلظة ومباعدة وامساك ومنع (وكتب) عبد الملك الى الحجاج يأمره أن يكتب اليه بسيرته فكتب اليه اني أيقظت رأيي وأنمت هواي فاذنيت السيد المصلح في قومه وواليت الحرب الحازم في أمره وقلدت الخراج الموفر لاماناته وقسمت لكل امرئ من نفسي قسما فاعطيته حظا من نظري واطيف عنايتي وحرفت السيف الى النطف المسيء والثواب الى المحسن البريء ليخاف المريب صولة العقاب ويتمسك المحسن بحظه من الثواب ويرغب أهل العناف في اداء الامانة ويتجنب أهل النطف والخيانة وأملت على ذلك من الله النجاح ومن خليفته المكافاة (وخطب) سعيد بن شريك بحمص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس ان الاسلام حائط منيع وباب وثيق فحائط الاسلام الحق وبابه العدل ولا يزال الاسلام منيعا ما اشتد السلطان وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذا بالعدل (قال أبو وائل الثقفي) دعاني سليمان بن وهب وقال لي اني قدمت حسن الظن بك والثقة بامانتك وواليتك قلادة في عنقي فصدق ظني فيك وحقق ثقتي بك ولا تفارق العدل في المخلوقين ظاهرا والعدل بينك وبين الخالق باطنا والله تعالى المستعان ثم دفع الي رقعة فيها توليتي على بعض الامور (وروى) أن المهدي ولى الربيع بن أبي الجهم فارس وقال له يا ربيع انشر الحق والزم القصد وارفق بالرعية واعلم ان أعز الناس من أنصف من نفسه وان أجورهم من ظلم الناس لغيره (وفي) كتاب الهند انما يسلم العاقل بالاخذ بالاناة ولا يزال صاحب العجلة يجتني منها ثمرة الندامة وضعف الرأي وليس أحد أحوج الى التؤدة والتثبت من الملوك فان المرأة انما هي بزوجها والمولود بابويه والمتعلم بمؤدبه والجند بالقائد والناس بالدين والعامة بالملوك والملوك بالتقوى والتقوى بالتثبت فالحزم للملك معرفة أصحابه وانزالهم منازلهم واتهام بعضهم على بعض فانهم يلتمسون هلاك بعضهم بعضا واظهار مساءة المسيئين واخفاء احسان المحسنين

فلم يستأثروا بكبير جمع * وكانوا للمصالح مؤثرينا
وكان الحزم فيما حاولوه * شعارهم فصاروا مكتفينا
وسيرهم لفعل الخير فيما * اليهم من أمور المسلمينا

وان يشأ الاله فساد قـــوم * أتاح لهم أكابر معتـــدينا
ذوى كبر ومجهـــلة وجبن * واهـــمال لما يتوقعـــونا
فظلوا يشرهون ويجـــمعون * وليسوا فى العواقب يفكرونا
وجاروا حيثما أمروا بعدل * كأن قد قيل كونوا جائرينا

(قال الحجاج) لعبد الملك بن مروان يا أمـــير المؤمنين انك أعز ما تكون أحوج ما تكون الى الله تعالى فاذا عززت بالله فاعف له فانك به تقدر واليه ترجع (وقال بعض الحكماء) وجدت المسيئ الىّ عبد الله فلو أساء الىّ عبد لأخى لصفحت عنه اكراما له فكيف لا أصفح عن مسيئ هو عبد الله

(قال الشاعـــر)

ارحم أخىّ عباد الله كلهـــم * وانظر اليهم بعين اللطف والشفقه
وقر كبيرهم وارحم صغيرهم * وراع فى كل خلق وجه من خلقه

(قال الشعبى) دخلت على ابن هبيرة وقد أتى بقوم فأمر بضرب أعناقهم فقال له رجل منهم أيها الامير ان الذى جعل السجن كان حكيما جعله قيدا للعجلة وبابا الى التثبت وسببا الى الاناة فعليك بالتؤدة واياك والعجـــلة فأنت على عقوبتنا أقدر منك على ردها فأمر بحبسهم ثم غض عنهم وأحسن اليهم (وفى سير العجم) آثر بالقيادة والسيادة والرئاسة أهل الشرف فى المواضع وأهل القدم والنصيحة والشـــهرة والنجدة والخبرة بالحروب وحسن المواساة للاتباع وسخاء النفس لبذل المال (قال محمد ابن نصر الكاتب)

اذا ما الله شاء صلاح قوم * أتاح لهم أكابر مصلحينا
ذوى رأى ومعرفة ونهم * واعـــدادا لما قد يحذرونا

(ذكروا) ان عبد الملك بن مروان لما ولى ابنه الوليد دمشق عهد اليه بما أحب ثم قال له يا بنى لا يبك صـــنائع قد رسخت فى المجـــد أصولها وأورقت فى العلى فروعها وانتشر عند الناس ذكرها فلا تهدمن ما قد شرف لك بناؤه وأضاء لك ضياؤه فكفى من سوء رأى المرء وقبيح أثره وضعة نفسه أن يهدم ما قد شيد له من فضيلة البناء ورفيع الثناء واياك واعراض الاحرار فان الحر لا يرضيه عن عرضه عوض واجتنب العقوبة فى الايثار فانه وتر مطلوب وعار باق ولا يمنعك من ذى فضـــل سبقت اليه صنيعة غيرك أن تصطنعه فان صنيعة ذى الفضل شكر تستوجبه وكنز تدخره واستعمل أهل الفضل دون أهل الهون ولا تعزل الا عن عجز أو خيانة وليكن جلساؤك غير أسـمائك فان الشباب شعبة من جنون وان نازعتك نفسك على أخذ شئ من المال فلا يكن خصمك الا بيت المال وليكن رسولك فيما بينى وبينك من يفهم عنى وعنك واذا كتبت كتابا فأكثر النظر فيه فان الكتاب موضع عقل الرجل ورسوله موضع عقله وأستودعك الله العظيم (قال عمارة العقبه) كنت

أجالس عبد الملك كثيرا فى ظل الكعبة فبينما أنا معه اذ قال لى يا عمارة ان تعش قليلا فسترى الاعناق مائلة الىّ والآمال نحوى سامية واذا كان ذلك فلا عليك أن تجعلنى لرجائك بابا ولا ملك ذريعة فوالله ان فعلت لأملأن يديك غبطة ولأكسونك نعمة سابغة قال ثم ان عبد الملك سار الى دمشق وصارت اليه الخلافة فخرجت اليه زائرا واستأذنته فأذن لى ودخلت فسلمت عليه فلما انقضى سلامى قال مرحبا بأخى ونادى أحد غلمانه فقال بوئه دارا وأحسن مهاده ونزهه وآثره على خاصته قال ففعل وأقمت عنده عشرين ليلة أحضر غداءه وعشاءه فلما أردت الانصراف والاوبة الى أهلى أمر لى بعشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم ومائة ناقة برقيقها وكسوتها وقال لى أترانى يا عمارة ملأت يديك غبطة قال فقلت يا سبحان الله يا أمير المؤمنين وانك ذاكر لذلك قال نعم والله لا خير فيمن لم يذكر ماوعد به وينسى ما أوعدكم لهذا الامر يا عمارة قلت والله لكأنه بالامس وله دهر يا أمير المؤمنين قال فوالله ما كان ذلك عن خبر سمعناه ولا حديث كتبناه ولا أثر رويناه غير انى عقلت فى الحداثة أشياء رجوت أن يرفع الله بها درجتى وينشر بها ذكرى قلت وما هى يا أمير المؤمنين قال نعم كنت لا أشارى ولا أمارى ولا أهتك ستراستره الله دونى ولا أركب محرما حظره الله على ولا حسدت ولا بغيت وكنت من قومى بواسطة القلادة وكنت أكرم جليسى وان كان ذميما وكنت أرفع قدر الاديب وأكرم ذا الثقة وأدارى السفيه وأرحم الضعيف فبذلك رفع الله قدرى يا عمارة خذ أهبة السفر وامض راشدا (وروى) أن مروان بن الحكم لما ولى ابنه عبد العزيز مصر قال له حين ودعه انه يقال أرسل حكيما ولا توصه فانظر الى أهل عملك فان حل لهم قبلك حق غدوة فلا تؤخره عنهم الى العشى وان حل لهم عشية فلا تؤخره عنهم الى غد أعطهم حقوقهم عند محلها فنستوجب بذلك الطاعة وايالك يا بنى أن يظهر لرعيتك منك كذب فانهم ان جربوا عليك الكذب لم يصدقوك فى الحق ولا تحابين فى القضاء قريبا ولا بعيدا واقض فى ذلك بالحق واستشر جلساءك وأهل العلم فان لم يستسن لهم فاكتب الىّ يأتيك فيه رأيى ان شاء الله وان كان لك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه عند سورة الغضب واحبس عنه عقوبتك اياه حتى يسكن غضبك ثم ليكن منك ما كان اليه وأنت ساكن الغضب منطفئ الحيرة فان أول من جعل الحبس كان حليما ذا أناة ثم انظر الى أهل الحسب والدين والمروءة والعقول فليكونوا جلساءك وأهل دخلتك ثم اعرف منزلهم منك على غيرهم فى غير استرسال منك ولا انقباض أقول هذا وأستخلف الله عليك (كان ازدشير) يقول ما شئ أضر على نفس ملك أو رئيس أوذى معرفة صحيحة من معاشرة سخيف أو مخالطة وضيع لانه كما أن النفس تصلح بمخالطة الشريف الاديب الحسيب كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس حتى يقدح ذلك فيها ويزيلها عن فضيلتها ويبينها عن محمود شريف أخلاقها وكما أن الريح اذا مرت بالطيب حملت طيبا تحيى به النفوس وتقوى به

جوارحها كذلك اذا مرت بالفتن فملته آلمت النفوس وأضرت باخلاقها اضرارا تاما والفساد أسرع اليها من الصلاح اذ كان الهدم أسرع من البنيان وقد يجد ذو المعرفة من نفسه عند معاشرة السفل الوضيع شهرا فساد عقله دهرا (قال بعض الحكماء) أوحش الاشياء رأس صار ذنبا وذنب صار رأسا (وقال عمرو بن العاص) لان يموت مائة من الاشراف خير من أن يرتفع واحد من السفلة لان عرضه اذا ارتفع وضع الاشراف وحط الاقدار (قال الراوى)

من كان يرجو أن يرى * من ساقط أمرا سنيا
فلقد رجا أن يجتنى * من عوسج رطبا جنيا

(روى أن معاوية) ركب يوما منجولا فى بعض أزقة دمشق وهو على بغلة شقراء له ومعه المغيرة بن شعبة فبينما هما كذلك اذ عرض له شخص من بعيد فلما نظرا اليه عمدا نحوه فاذا هو معبد الجهينى فقال له معاوية ما الذى أقدمك يا معبد أراغب أم راهب فقال كل لم يأت لى ولكن أتيت وأرجع زاهدا فثنى معاوية عنان بغلته فقال له المغيرة ما ولدت قرشية قرشيا أضعف قلبا منك فقال يا مغيرة أيما أحب اليك أحلم عنهم ويجتمعون الى أم أسفه عليهم ويتفرقون عنى فقال المغيرة لا بل تحلم عليهم ويجتمعون اليك فضرب معاوية يده على صدر نفسه ثم قال ما ولدت قرشية قرشيا مثل هذا القلب (وروى) أنه لما ولى الحسن بن عمارة مظالم الكوفة أصبح الاعمش يقول ظالم ولى المظالم فبلغ الحسن بن عمارة قوله فوجه اليه بنفقة وثياب فلما أصبح الاعمش قال مثل هذا ولى علينا يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعود على فقيرنا فقال له رجل من جلسائه يا أبا محمد ما هذا قولك بالامس قال حدثنى خيثمة عن عبد الله بن مسعود قال جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها (قال بعض الحكماء) من أراد أن تنقاد له القلوب بالطاعة ويسعد بقبول ما يأمر به وينهى عنه فليتول ذلك فى نفسه فان قدر عليها ووقف بها حيث يحب من المحامد فليثق بسرعة نفاذ أمره فى غيره وقبول ما يراه ويأمر به فان المهذب مطاع والعاجز عن مصلحته مخالف ولا يحظى بعظته (سأل) رجل عبد الملك بن مروان الخلوة فأقبل على أصحابه فقال اذا شئتم فقاموا فلما خلى المجلس وهيأ الرجل الكلام قال له عبد الملك على رسلك اياك أن تمدحنى فانا أعلم بنفسى منك أو تكذبنى فانه لا رأى لمكذوب أو تغتاب عندى أحدا قال فتأذن لى فى الانصراف قال نعم (قال عبد الله بن العباس) قال لى أبى ان هذا الرجل يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يدنيك ويستخليك دون الناس فاحفظ عنى ثلاثا لا تفشين له سرا ولا تغتابن عنده أحدا ولا يطلعن منك على كذب (وفى كتاب العجم) أن بعض الملوك استشار وزراءه فقال أحدهم لا ينبغى للملك أن يستشير منا أحدا الا اخاليا به فانه أصون للسر وأحزم للرأى وأجدر بالسلامة

وأعنى لبعضنا من غائلة بعض فان افشاء السر الى واحد أوثق من افشائه الى اثنين وافشاؤه الى ثلاثة كافشائه الى العامة لان الواحد رهن بما أفشى اليه والثانى يغلق عنده ذلك الرهن والثالث علاوة فاذا كان سر الرجل الى واحد كان أحرى أن لا يظهره رغبة منه ورهبة واذا كان عند اثنين دخلت الى الملك شبهة واتسعت على الرجلين المعارض فان عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد وان اتهمهما اتهم بريئا بجناية مجرم وان عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له (قال الشاعر)

شاور سوالك اذا نابتك نائبة * يوما وان كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما دنا ونأى * ولا ترى نفسها الا بمرآت

(قال الوليد بن عتبة) أسر الى معاوية حديثا فأتيت أبى فقلت له ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا ولا أظنه كان يطوى عنك ما بسطه الى أفأخبرك به قال يا بنى ان من كتم سرا كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه فلا تكن مملوكا بعد أن كنت مالكا قال فقلت يا أبت ان هذا لا يدخل بين الرجل وابنه قال لا يا بنى ولكن أكره أن يتذلل لسانك باحاديث السر فدخلت على معاوية فحدثته بما جرى بينى وبين أبى فقال ويحك يا وليد أعتقك أخى من الخطأ (قال الشاعر)

تحفظ من لسانك فهو عضو * أشد عليك من وقع اليمان
فلا والله ما فى الارض شئ * أحق بطول سجن من لسان

(قال بعض الحكماء) يجب للوالى أن يعلم أن رأيه لا يتسع للامور كلها فليتفرغ للمهم منها وليعلم أنه متى شغل نفسه بغير المهم أزرى بالمهم (وقالوا) يستدل على ادبار الملك بخمسة أمور أحدها أن يستكفى الملك بالاحداث ومن لا خبرة له بالعواقب الثانى أن يقصد أهل مودته بالاذى الثالث أن ينقص خراجه عن قدر مؤونة ملكه الرابع أن يكون تقريبه وتبعيده للهوا لا للرأى الخامس استهانته بنصائح العقلاء وآراء ذوى الحنكة (وقالوا) رأس أعمال الملك أربعة أشياء حفظ المملكة وتحصين الديانة واثابة المحسن وانصاف المظلوم (قال بعض الحكماء) الدول تشب وتكهل وتخرف فاذا كان عائدها أكثر مما يستحقه الملك فهى شابة تنذر بطول البقاء وان كان عائدها بمقدار ما يحتاج اليه فهى كهلة وان كان عائدها أقل مما يحتاج اليه فهى خرفة متولية (نقل ابن سعيد فى كتاب الزهرات) أن المقتدر من خلفاء بنى العباس خلا يوما ببطانته فقال انا كنا فى أول أمرنا لا ننكر من حالنا ولا من حال الجند ولا حال الرعية شيأ ثم صرنا ننكر حال الرعية والجند ثم صرنا الآن ننكر الاحوال الثلاث فليتكلم كل بما عنده فاطرق الجماعة فقال مالكم لا تتكلمون فقال على بن عيسى بن الجراح أيد الله أمير المؤمنين ان مثل هذا لا يقدر أحد من عبيدك أن يتكلم فيه الا خلوة قال فليقعد من عنده جواب عن ذلك فقاموا وقعد ابن عيسى ثم قال سدد الله الاراء العالية

وأمدها بالمعقبات الحافظة الكالئة ان هذه الامور صلاحها واختلالها من قبل الوزراء وهم ولاة التدبير والنظر فى الجبايات فكان أول وزير نظر فى الاعمال أمينا فى خاصتكم عادلا فى رعيتكم فلم ينكر مولانا من الاحوال الثلاث شيأ الا أن أكفاءه حسدوه على مكانه من السلطان وثناء الناس فتوصلوا بكل سبب الى عزله فكان ذلك وولى الثانى فلم يكن له بد من ستر المكان الذى أتى منه الاول فاشتغل بعمارة الخاصة وقبل الجهات واحتاج الى المصانعات فلم يكن له بد من الميل على الرعية وهى أول ما يمد اليه اليد فضجت به فلم يكن لك بد من عزله وولى ثالث فاحتاج الى ستر المكانين وقد تشعبت الاحوال وتقلصت الاموال فلم يكن له بد من النفير لما يحتاج اليه السلطان فعم الاختلال الاحوال الثلاث فاستحسن المقتدر ما أتى به وقال فما يصلح ما اختل ويقبل ما أدبر قال أن تولى من يقدم خوف الله فتأمن معه الرعية ثم يخافك فتأمنه فيما يجبيه اليك وفيما يخرجه عنك واذا خاف الله وخافك احتجت أن تسد له مكان الخوف من الناس بكثرة الاستدعاء والعمل بما أشار به وأن لا يجعل بينك وبينه واسطة فبهذا تتوفر الاموال وتصلح الاحوال وتبسط الايدى بالدعاء وتنكف أكف الشفاعات والجاهات فقال قد قلدناك ما وراءنا واشترطنا لك ما شرطته لمن يتولى ذلك فيصلح الله على يديه فقبل يده وانصرف الى مكان الوزارة فكان أول ما نطق به أن جعل الخرج أقل من الدخل وولى للكفاءة لا للغاية وبلغ من السياسة والامانة الى الغاية فصلحت الاحوال وتكاشف ما تقلص من الظلال وكان على بن بسام قد هجاه لما نفى الى مكة فلما ردت اليه الوزارة جلس يوما للظلامات فرفعت به فى جملة القصص رقعة مكتوب فيها

وافى ابن عيسى وكنت أحنقه * أشد شئ على أهونه
ما قدر الله ليس يدفعه * وما سواه فليس يمكنه

فقال على بن عيسى صدق هذا ابن بسام والله ما ناله منا مكروه أبدا

(الفصل الثانى فى الاخبار التى تتعلق بذوى الهمم والرياسة)

(حدث) محمد بن عبد الاعلى بن هاشم القاضى قال كان الوزير سليمان بن وانسوس رجلا جليلا أديبا من رؤساء البربر وكان أسيرا عند الامير عبد الله بن محمد صاحب الاندلس من بنى أمية فدخل عليه يوما وكان عظيم اللحية فلما رآه مقبلا جعل الامير ينشد

معاوفة كأنها جوالق * نكراء لا بارك فيها الخالق
للقمل فى حافاتها نقانق * فيها الباغى المتكا مرافق
وفى احترام الضيف ظل رائق * ان الذى يحملها لمائق

ثم قال له اجلس يا بريرى فجلس وقد غضب فقال له أيها الامير ان الناس يرغبون فى هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم وأما اذا صارت جالبة للذل فلنا دور تسعنا وتغنينا عنكم فان حلتم بيننا وبينها فلنا قبور تسعنا لا تقدرون على ان تحولوا بيننا وبينها ثم وضع يديه فى الارض وقام من غير أن يسلم ونهض الى منزله قال فغضب الامير وأمر بعزله عن الوزارة ورفع دسته الذى كان يجلس عليه وبقى كذلك مدة ثم ان الامير عبد الله وجد على فقده لعفافه وأمانته ونصيحته وفضل رأيه فقال للوزراء لقد وجدت لفقد سليمان تأثيرا وان أردت استرجاعه وتبرأ منا كان ذلك غضاضة علينا ولوددت أن يبدأ بالرغبة فقال له الوزير أبو محمد بن الوليد بن حاتم ان أذنت لى فى المسير اليه استنهضت الى هذا فأذن له فنهض ابن غانم الى دار ابن وانسوس وكانت رتبة الوزارة بالاندلس أيام بنى أمية أن لا يقوم الوزير الا لوزير مثله فانه كان يتلقاه وينزله معه على مرتبته ولا يحجمه ولا لحظة فلبث الاذن على ابن غانم حينا ثم أذن له فدخل عليه فوجده قاعدا فلم يتزحزح له ولا قام اليه فقال له ابن غانم ما هذا الكبر عهدى بك وأنت وزير السلطان وفى ابهة رضاه تتلقانى على قدم وتتزحزح لى عن صدر مجلسك وأنت الآن فى موجدته بضد ذلك فقال له نعم لانى كنت حينئذ عبدا مثلك وأنا اليوم حر قال فيئس ابن غانم منه وخرج ولم يكلمه ورجع الى الامير فاخبره فابتدأ الامير بالارسال اليه وردّه الى أفضل مما كان عليه (لما) جاءت الخلافة هشام بن عبد الملك سجد من معه غير الابرش الكلبى فقال هشام مالك لم تسجد يا أبرش فقال مالى وللسجود يا أمير المؤمنين بينما أنت صاحبى اذ رفعت فى السماء وتركتنى قال فان ذهبنا بك معنا أو تفعل قال نعم قال فالآن طاب السجود فسجد (قال احمد بن اسماعيل بن على) كان أبى ومشايخ أهلى يجلسون مع أبى جعفر المنصور وكان أحد اثنا يجلسون دون ذلك وكان يتفقد من أمورنا ما كان يتفقده من أمور ولده حتى يستقرئ أحدنا ويسأله ما بلغ من القرآن فاذا أدرك المدرك منا خيره بين أن يسرّيه وبين أن يزوجه ويتعاهدنا حتى يبعث بنا كهلة الشام وخراسان وكنا نصلى بالغداة والعشى فنجلس فى مجلسه حتى يخرج الينا وانا صرنا فى مجلسه ذات يوم كعادتنا نجلس ننتظر خروجه اذ أفاض أبى وعمومتى فى استبطائه واستئثاره عليهم فأطنبوا فى ذلك وكان الموكل بالباب سليم الاسود يرفع الستر اذا جاء فغابت من سليم غفلة وجاء وهو يتسمع عليهم ففهم ما هم فيه ووثب سليم ليرفع الستر فامسك يده ومنعه من رفعه حتى استوعب سمعه جميع ما كانوا فيه فلما انقضى كلامهم أمر سليما برفع الستر ودخل فقاموا له كنحو ما كانوا يفعلون فقال ما هذا انما ينبغى أن تفعلوا هذا بحضرة العمامة لتشدوا بذلك سلطانكم فاما مجالس الخلوة فنحن فيها أخوة ثم أمرهم بالجلوس وأقبل عليهم وقال يا عمومتى ويا اخوتى قد سمعت ما كنتم فيه وقولكم استأثر علينا ولعمرى لقد كان ذلك وما استئثارى عليكم

الا لكم ولقمع عدوكم واشفا قا من ذهاب سلطانكم وزوال أموالكم وانما أبكى لكم رقة عليكم فكائنى بالرجل منكم ومن أبنائكم أو من أبناء أبنائكم بين يدى الرجل من ولدى أو من ولد ولدى يتسبب له فلا يعرفه حتى لعله أن يبلغ على بن عبد الله بن العباس قال فذهبوا يتكلموا فقال أقسمت عليكم لما سكتم أفيضوا بنا فى غير هذا الحديث فقطعهم أن يتكلموا وضرب الدهر ضربانه ومات المنصور وولى المهدى ومات وولى الهادى ثم مات وولى الرشيد وخرج الرشيد الى الرقة ونالتنا جفوة ولزمنى دين فخرجت اليه الى الرقة فكان أول ما لقيت موكبا عظيما فقلت ما هذا فقيل لى هذا ولى العهد الامين والمأمون فترجلت وسلمت عليهما فقالا من أنت فقلت أحمد بن اسماعيل بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وبكيت فانتهى الخبر من ساعته الى الرشيد فلم أصل الى منزلى حتى لقينى رسوله يدعونى فلما دخلت عليه قال لى مم بكيت قلت يا أمير المؤمنين كان من القصة كيت وكيت وسقت اليه خبر المنصور فبكيت اذ كنت أنا المبتلى بذلك دون من حضره فقال هما ابنا أخيك وهى عورة فسرها ولا تسئل عن نسبك بعد اليوم ما أقدمك قلت دين لزمنى قال وكم هو قلت عشرون ألف دينار فقال يا غلام أصلها اليه الساعة واجعل معها خمسة آلاف دينار لحفظه الحديث عن المنصور هل من حاجة لك غير ذلك قلت أودع أمير المؤمنين وانصرفت (ركب) جلال الدولة يوما الى الصيد على عادته فلقيه سوارى يبكى فقال له مالك فقال لقينى ثلاثة غلمان أخذوا الى جمل بطيخ كان معى هو بضاعتى فقال أمض الى العسكر فهناك قبة حمراء فاقعد عندها ولا تبرح الى آخر النهار فانا أرجع وأعطيك ما يغنيك فلما عاد السلطان قال لنائبه انى قد اشتهيت بطيخا ففتش العسكر وفتش الخيام على شئ منه وأخذ البطيخ فقال عندى من وجدتموه قيل له فى خيمة فلان الحاجب فقال أحضروه فلما حضر قال له من أين هذا البطيخ فقال ان الغلمان جاؤا به فقال أريدهم الساعة فاحسوا بالشر فهربوا خوفا من أن يقتلهم فقال أحضروا السوارى فاحضر فقال له هذا هو بطيخك الذى أخذ منك قال نعم فقال خذه وهذا الحاجب مملوك لى وقد سلمته اليك ووهبته لك حيث لم يحضر الذين أخذوا البطيخ منك والله لئن خليته لاضربن عنقك فاخذ السوارى بيد الحاجب وخرج فاشترى الحاجب نفسه منه بثلاثمائة دينار فعاد السوارى الى السلطان وقال يا مولاى قد بعت المملوك الذى وهبته لى بثلاثمائة دينار قال ورضيت بذلك قال نعم قال اقبضها وامض بالسلامة (لما) ولى معاوية عمرا مصر احتبس فى بعض الاعوام خراجها عن معاوية فعزم على عزله عنها وأراد استعمال أبى الاعور السلمى عليها وكتب الى عمرو بالتسليم فلما بلغ عمرا الخبر أحضر وردان غلامه فقال له ان أمير المؤمنين قد عزلنا واستعمل أبا الاعور فهل عندك من حيلة قال نعم اذا قدم عليك[٣٦] فاصنع له طعاما ولا تنظره فى كتاب حتى يأكل

ودعنا نستعمل عليه الحيلة فلما قدم أبو الاعور على عمرو قال له هذا كتاب أمير المؤمنين قال عمرو لو جئتنا بغير كتاب لصدقنا مقالتك قال انظر في الكتاب قال ما أنا ناظر لك فيه حتى تأكل قال فدعا عمرو بالطعام ووضع أبو الاعور كتابه وعهده الى ناحية وأقبل على الطعام يأكل فجاء وردان فسرق الكتاب والعهد فلما فرغ أبو الاعور من طعامه أقبل يطلب الكتاب فقال له انما جئتنا زائرا فنحسن جائزتك فاضطرب من ذلك أبو الاعور ثم صار الى أن قبل الجائزة وبلغ ذلك معاوية فضحك حتى استلقى وأقر عمرا على ما كان عليه من ولاية مصر (حكى) بكر بن عبد الله المزني أن رجلا كان يقف على رأس بعض الملوك ويقول أحسن الى المحسن باحسانه والمسيء سيكفيكه مساعيه وكان الملك يحسن اليه فحسده رجل من أصحابه على مقامه وتمنى أن يكون مكانه في مقامه فبغى عليه الى الملك أشد البغي وسعى في حتفه أبلغ السعي حتى تغير عليه الملك وكان لا يكتب بخط يده الا في صلة أو جائزة فكتب بخط يده الى بعض عماله لشدة حقده اذا وصلك كتابي هذا فاذبح حامله واسلخه واحش جلده تبنا وابعث به الي ودفعه الى ذلك القائم على رأسه فأخذه وخرج به فلقيه الساعي عليه فقال له ما هذا قال خط يد الملك الى عامله فلان فقال هبه لي بفضلك واحبني به فاني محتاج اليه وأنت غني عنه فرق له ودفعه اليه فأخذه وذهب به فرحا مسرورا فلما قرأه العامل قال أتعرف ما في كتابك قال صلة الامير المعلومة من خط يده قال بل أمرني فيه أن أذبحك وأحشو جلدك تبنا وأرسل به اليه فقال له اتق الله في دمي فان الكتاب لم يكن لي فراجع الملك في أمري قال ليس لكتاب الملك مراجعة الا انفاذ أمره لاسيما اذا كان بخط يده وأمر بانفاذ ما في الكتاب قال وجاء ذلك الرجل على عادته وقام على رأس الملك وجعل يقول أحسن الى المحسن باحسانه والمسيء سيكفيكه مساعيه فلما رأى الملك قال ما فعل الكتاب الذي كتبته لك بخط يدي قال له لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له قال له الملك انه ذكر لي عنك أمر كذا وسعى عليك بوجه كذا فأوضح الرجل براءته مما نسب اليه وبين حجته في تكذيب ساعيه عليه حتى تبين له أمره وظهر عنده صدقه وجيء بجلد الباغي محشوا تبنا فقال له الملك صدقت وصدقت موعظتك قم كما كنت تقوم وقل كما كنت تقول (قال الاصمعي) تطاول رجل من قريش على رجل من اخلاط الناس عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجعل القرشي يقول أنا من معتلج البطاح وأنا وأنا فغاظ ذلك عمر فقال له ما هذا ان كان لك عقل فلك حسب وان كان لك خلق فلك شرف وان كان لك تقوى فلك كرم والا فلست خيرا من أحد وذلك الحمار خير منك ثم قال عمر ان أحبكم الينا قبلا ان نراكم أحسنكم اسما فاذا رأيناكم فأحسنكم صمتا فاذا تكلمتم فأثبتكم منطقا فاذا اختبرناكم فأحسنكم عملا أحب الينا وشركم عملا أبغض الينا سرائركم بينكم وبين ربكم (قال اياس بن

معاوية (خرجت في سفر ومعي رجل من الاعراب فلما كان في بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعاتبا والى جانبهما شيخ من الحي فقال لهما الشيخ أنعما عيشا ان المعاتبة تبعث التجني والتجني يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ولا خير في شيء ثمرته العداوة فقلت للشيخ من أنت فقال أنا ابن تجربة الدهر فقلت ما أفادك الدهر قال العلم به قلت فايه أحمد قال ان بقي المرء أحدوثة حسنة بعده (روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه) قدم الشام على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه على حمار فتلقاهما معاوية في مركب له ردء فجاوز عمر حتى أخبر فرجع اليه فلما قرب منه نزل فأعرض عنه عمر وتركه يمشي فقال له عبد الرحمن أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين فأقبل على معاوية فقال له أنت صاحب المركب آنفا مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك قال نعم يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك قال لانا في بلاد لا نمنع فيها من جواسيس العدو ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني بذلك أقمت عليه وان نهيتني انتهيت فقال يا معاوية ما عاتبتك في شيء يبلغني عنك الا تركتني منه في أضيق من رواجب المضرس فان كان الذي قلت حقا فرأي أريب وان كان باطلا فخدعة أديب ولست آمرك به ولا ناهك عنه فقال عبد الرحمن يا أمير المؤمنين لحسن ما صدر هذا عما أوردته فيه فقال عمر لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه (حكي) أنه شكا أهل بعض الاقطار الى المأمون والي كان عليهم فقال لهم كذبتم فقد صح عندي عدله فيكم واحسانه اليكم فاستحيوا أن يردوا عليه قوله فقال له شيخ منهم يا أمير المؤمنين قد عدل فينا خمسة أعوام فاجعله في قطر غيره حتى يسع عدله جميع رعيته وترجح الدعاء الحسن فضحك المأمون واستحى منهم وصرفه عنهم (وقف) شقيق بن سليك على الحجاج فقال أصلح الله الامير أعرني سمعك واغضض عني بصرك واكفف عني شرك وان سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة قال هات قال عصى عاص من عرض العشيرة فخلق على اسمي وهدم منزلي وحرمت عطائي فقال الحجاج أما سمعت قول الشاعر

جانيك من يجني عليك وقد * تعدى الصحاح مبارك الجرب
فلرب مأخوذ بذنب عشيرة * ونجا المقارف صاحب الذنب

قال أصلح الله الامير سمعت الله عز وجل يقول غير ذلك قال وما سمعته يقول قال قال الله العظيم يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه انا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون فقال الحجاج على بيزيد بن مسلم فمثل بين يديه فقال له اطلق لهذا عن اسمه واصلك له بعطائه وابن له منزله وأمر مناديا ينادي صدق الله وكذب الشاعر (عاد) المعلى بن أيوب صديقا له فرأى علة وخلة فأشار الى وكيله فقال اذهب وجئني بخمسمائة درهم

مختومة فى قرطاس فذهب وجاء بها ووضعها بين يديه فدفعها الى العليل وقال له هذا دواؤك فاستعمله ونهض ففتحها العليل عن منية اتمنى وغيرما كان من حاله فلما كان الاسبوع عاده ثانيا فرآه متماثلا نشيطا فقال كيف وجدت الدواء قال ياسيدى وجدته نافعا لعلتى وحالى قال أتريد زيادة قال نعم يامولاى فقال للوكيل اذهب وجئنا بمثل ذلك الدواء فذهب وجاءه بخمسمائة أخرى فانشط العليل من عقال العلة وقال هذا اعادة حياة لا عيادة (وكان) لعمرو بن سعيد صديق ينقطع اليه فرأى يوما ثوبه الذى يلى بدنه من تحت جبته فيه أثر بلى فلما انصرف من عنده وجه اليه بتخت من ثياب وصرة من دنانير فأخذهما الرجل وكتب اليه

سأشكر عمرا ان تراخت منيتى * أيادى لم تمنن وان هى جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه * ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت

رأى خلتى من حيث يخفى مكانها * فكانت قذى عينيه حتى تجلت

(حكى) أنه لما مرض الشافعى رضى الله عنه مرضه الذى مات منه قال لقومه اذا أنا مت فقولوا لفلان يغسلنى فلما توفى وبلغه الخبر قال ائتونى بتذكرته فجى بها اليه فوجد فيها على الشافعى سبعون ألف درهم دينا لفلان وفلان فكتبها الرجل على نفسه وقال هذا هو الغسل الذى أراده (مر الشافعى) بسوق الحدادين بمصر فسقط قوسه من يده فقام رجل من دكانه فأخذه ومسحه بكمه وناوله اياه فقال الشافعى رضى الله عنه لغلامه كم معك قال سبعة دنانير فقال له ادفعها اليه (خرج) سعيد بن العاص يوما من عيادة مريض فرآه شاب من قريش يمشى وحده فمشاه حتى بلغ باب داره فلما انتهى الى باب الدار التفت اليه فقال له ألك حاجة قال مالى حاجة ولكن رأيتك تمشى وحدك فأحببت أن أصل جناحك فقال بارك الله فيك مكانك ثم دخل الى منزله فأخرج اليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم فدفعها اليه (مر يزيد) بن المهلب بأعرابية عقب خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز يريد البصرة فقرته عنزا فقبلها وقال لابنه معاوية ما معك من النفقة قال ثمانمائة دينار فقال ادفعها اليها فقال ابنه انك تريد الرجال ولا يكون الرجال الا بالمال وهذه يرضيها اليسير وهى بعد لا تعرفك قال فان كانت ترضى باليسير فانا لا نرضى الا بالكثير وان كانت لا تعرفنى فانا أعرف بنفسى ادفعها اليها (حكى) أن رجلا أتى على ابن سليمان فقال بالذى أسبغ عليك هذه النعم من غير شفيع كان لك اليه الا تفضلا منه عليك الا أنصفتنى من خصمى وأخذت لى الحق منه فانه ظلوم غشوم لا يستحى من كبير ولا يلتفت الى صغير فقال له أعلمنى من هو فان لم ينصفك والا أخذت الذى فيه عيناه من هو قال الفقر فأطرق الى الارض مليا ينكت الارض بأصبعه ثم رفع رأسه فأمر له بعشرة آلاف دينار فأخذها ومضى فلما سار خارجا منه قال ردوه فلما مثل

بين يديه قال ياذا الرجل سألتك بالله متى أتاك خصمك متعسفا الا أتيت الينا فيه متظلما (قدم) اعرابى على على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال ياأمير المؤمنين لى اليك حاجة يمنعنى الحياء أن أذكرها لك فقال له ياأعرابى خطها فى الارض فخط فيها انى فقير فقال على لغلامه قنبر اكسه حلة فكساه الحلة فانشد الاعرابى يقول

كسوتنى حلة تبلى محاسنها * فسوف أكسوك من قول الثنا حللا
اذا ثنيت ثناء زانك مكرمة * ولست تبغى بما قد نلته بدلا
ان الثناء ليحيى ذكر صاحبه * كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا
لا تزهدن الدهر فى عرف بدأت به * كل امرء سوف يجزى بالذى فعلا

فقال على لغلامه أعطه مائة دينار فأعطاه اياها فلما ولى الاعرابى قال قنبر ياأمير المؤمنين لو فرقتها فى المسلمين لأصلحت بها من شأنها فقال له على مه ياقنبر لا تفعل أصحابى معى لست أنساهم مع انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تشكروا لمن أثنى عليكم واذا أتاكم كريم قوم فأكرموه (قال اعرابى) لداود بن يزيد المهلبى انى لم أصن وجهى عن مسألتك فصن وجهك عن ردى وضعنى من كرمك حيث وضعت نفسى من الثقة بك فأمر له بعشرة آلاف درهم وقال له هى أكبر من قدرك فقال له الاعرابى لئن جاوزت قدرى لما بلغت أملى فيك (سأل) رجل أسد بن عبد الله فاعتل عليه فقال له ما سألتك الا عن غير حاجة قال ولم قال لانى رأيتك تحب من لك عنده معروف فأردت أن أتعلق بحبل ود منك فأعطاه (وأتى) ابن السماك رجل فقال انى قد أتيتك فى حاجة واعلم أن الطالب والمطلوب اليه عزيزان ان قضيت وذليلان ان لم تقض فاختر لنفسك عز البذل على ذل المنع واختر لى عز النجح على ذل المنع فقضى حاجته (قال) محمد بن واسع لقتيبة بن مسلم انى أتيتك فى حاجة رفعتها الى الله قبلك فان يأذن الله فيها قضيتها وجدتنى لك وان لم يأذن الله فيها لم نقضها وعذرتنى لك (وقال) فيض بن اسحاق كنت عند الفضيل بن عياض اذ دخل رجل فسأله حاجة فألح فى السؤال عليه فقلت لا تؤذن الشيخ فقال له الفضيل اسكت يا فيض أما علمت أن حوائج الناس اليكم نعمة من الله عليكم فاحذروا أن تملوا النعم فتتحول نقما ألا تحمد ربك أن جعلك موضعا تسئل ولم يجعلك موضعا تسأل (وفد) قوم من قريش على معاوية فقالوا السلام عليك يامعاوية فبسط لهم وجهه وألان قوله فطلبوا الموادعة فقال ياوجوه قريش مالكم أتيتم من مكان بعيد ثم لم تجعلوا بين السلام والموادعة حاجة تطلبونها فقالوا والله ياأمير المؤمنين ما أتيناك الا مفاخرين باحسابنا مباهين لك برجالنا متعززين عليك بسيوفنا طالبين من مالك غير راضين باليسير من نوالك ولكنك بسطت لنا الوجه وألنت المقال فاستغنينا بذلك عن طلب المال فقال اذا والله

لأجمعن لكم بين الحسنيين ولأصرفنكم بما يقدم من تخلف عنكم (كان) للقاضي أحمد ابن أبي داوود شخص يختص به ويسعى في قضاء حوائجه فنعه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات من التردد اليه لمنافسة بينه وبين القاضي المذكور وشحناء فبلغ ذلك القاضي فجاء الى الوزير فقال له والله ما جئتك متكثرا بك من قلة ولا متعززا من ذلة ولكن أمير المؤمنين رتبك رتبة أوجبت لقاءك فان اقبالك فله وان تأخرنا عنك فلك ثم نهض من عنده (قال بن سعيد) كان أحد المغاربة الادباء يتردد الى جمال الدين بن مطروح بالقاهرة وله حينئذ صيت وتمكن من الدولة الصالحية فمدحه بكثير وكتب له من النثر والنظم والامثال كثيرا فما ظهر له منه قبول على جميع ما كتب به اليه وشكى الى ذلك فقلت له اكتب له بقول ابن اللبانة

جمالك أليس الدنيا جمالا * ومد على مناكبها ظلالا

أطل نظرة السيادة في حديثي * فان الرزق حيث تميل مالا

قال فوالله ما وقف عليهما حتى بسط وجهه ونظر في قصته وظهر منه جملة مافات من القول والالتفات (كان محمد بن الحسن الشيباني) قد بلغ عند الرشيد مبلغا جليلا وكان امام الحنفية في زمنه واحتاج الامام الشافعي الى مشاركته فكتب له

لست أدري ماذا أقول ولكن * أبتغي من عريض جاهك نفعا

والفتى ان أراد نفع أخيه * فهو أدرى في أمره كيف يسعى

فاعتنى به حتى صدر الى مصر بطلبته (لما) مات عمرو بن مسعدة رفعت الى المأمون رقعة أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم فوقع في ظهرها هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا فبارك الله لولده فيما خلف وأحسن لهم النظر فيما ترك (لما) استشعر الاسكندر الوفاة كتب الى أمه يقدم عندها مقدمات التصبر عن مصابه بمواعظ ذكرها في كتابه ثم قال لها يا أمه اذا أنا مت فاصنعي طعاما حسنا كاملا وشرابا لذيذا حلوا وأحضري له كافة الناس واعهدي اليه أن لا يحضره من نابته من الدهر نائبة ولا من أصابته من الزمان مصيبة ليكون مأتم الاسكندر خلافا عن مآتم العامة ويكون لك في ذلك الذكر والصيت فلما مات امتثلت ذلك واختلفت في الطعام والشراب ودعت الناس اليه وعهدت اليهم بما أمرها فلم يأتها أحد فقالت ما بال الناس مع تقدمنا اليهم قد تخاذلوا عنا فقيل لها أمرت أن لا يحضره من أصابته مصيبة وكل الناس أصابتهم المصائب ونابتهم النوائب فقالت يا اسكندر ما أشبه أواخرك بأوائلك أردت والله أن تعزيني عنك التعزية الكاملة (قال شريح القاضي) اني لاصاب بالمصيبة فاحمد الله عليها باربعة وجوه أحدها اذ لم تكن أعظم

عما هي وأحمده اذ رزقني الصبر عليها وأحمده اذ وفقني للاسترجاع على ما أرجو فيها الثواب وأحمده اذ لم يجعلها في ديني (قال الشاعر)

الحمد لله رب العالمين كما * يحبه الملك الاعلى ويختار

هو الحميد الذي جلت محامده * فليس يبلغ منها الدهر معشار

نثني عليه بما أولى ونشكره * كم نعمة منه والانسان كفار

(روى في بعض الاخبار) أن امرأة من الاعراب وقفت على جماعة فقالت لهم ما الكرم يرحمكم الله قالوا بذل المعروف والايثار على النفس قالت هذا في الدنيا فما هو في الدين قالوا طاعة الله سبحانه وتعالى وبذل المجهود في عبادته واجتناب محارمه والوقوف عند حدوده طيبة بذلك نفوسنا قالت أفتريدون بذلك جزاء قالوا نعم قالت ولم قالوا لان الله وعدنا بالحسنة عشر أمثالها قالت سبحان الله فاذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فاين الكرم قالوا فما هو يرحمك الله قالت هو أن تعبد الله حق عبادته لا يراد على ذلك جزاء حتى يفعل بكم مولاكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيأ بشئ (دخل) المهدي الكعبة ومعه منصور الحجبي من حجبة البيت فقال ما حاجتك قال اني أستحي أن أسأل في بيته غيره فلما خرج أمر له بعشرة آلاف دينار (قال) خالد بن صفوان لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ولا تطلبوها الى غير أهلها ولا تطلبوا ما لستم له بأهل فكونوا بالمنع خلقاء (وقال خالد بن صفوان) شهدت عمرو بن عبيد ورجل يشتمه فما ترك منه شيأ فلما فرغ قال له عمرو آجرك الله على ما ذكرت من صواب وغفر لك ما ذكرت من خطأ فما حسدت أحدا حسدي عمرا على هتين الكلمتين (وشتم) رجل الشعبي فقال له ان كنت صادقا فليغفر الله لي وان كنت كاذبا ليغفر الله لك (وشتم) رجل أبا ذر فقال له يا هنا لا تستغرق في شتمنا ودع للصلح موضعا فانا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه (وروى) أن علي بن الحسين رضي الله عنهما كان يوما خارجا من المسجد فلقيه رجل فسبه فثارت عليه العبيد والموالي فقال علي بن الحسين مهلا على الرجل ثم أقبل عليه فقال له ما ستر عنك من أمرنا أكثر ألك حاجة نعينك عليها فاستحيى الرجل ورجع الى نفسه قال فألقى عليه ثوبا كان عليه وأمر له بألف درهم قال فكان الرجل بعد ذلك يقول أشهد أنك من أولاد الرسل (ومر المسيح ابن مريم) بقوم من اليهود فقالوا له شرا وقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل واحد ينفق مما عنده (وفي سير العجم) أن رجلا وشى برجل الى الاسكندر فقال أتحب أن أقبل منك عليه ونقبل منه عليك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر (قال الصلت ابن سعيد) كنا عند سفيان بن عيينة ففجر بنا وقال أليس من الشقاء أن أجالس التابعين ثم أجالسكم

جالست ضمرة بن سعيد الحذري وعبد الله بن دينار وجابر بن عبد الله وعدد جماعة فقال له صبي في المجلس لم يكن في الجماعة أصغر منه سنا أتصغو يا أبا محمد قال نعم قال والله لشقاء التابعين بمجالستهم اياك بعد مجالستهم الصحابة أشد من شقائك بمجالستك إيانا بعد التابعين فاكبت ابن عيينة ثم قال للصبي يوشك أن تكون للحال وكان الصبي يحيى بن أكثم (وذكر) أن البراء بن المقلس قرأ على مؤدبه ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقال له يا أستاذ ما الورد فقال له المؤدب لا أدري فقرأ لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا فقال له يا أستاذ ما العهد فقال المؤدب لا أدري فاتم البراء القراءة وقال اذا كنت لا تدري فلم غررت بالناس فضربه المؤدب فقال البراء يا أستاذ ألم يكفك الجهل حتى أضفت اليه الظلم والاذى فاستحله المؤدب وتاب الى الله من التأديب وأقبل على طلب العلم (أكب رجل) من بني مرة على مالك بن اسحاق يحدثه في يوم صيف ويغمه ويثقل عليه ثم قال أتدري من قتلنا منكم في الجاهلية قال لا ولكن أعرف من قتلتم منا في الاسلام قال ومن هم قال أنا قتلتني اليوم بدون حديثك وكثرة فضولك (قال الربيع) حاجب المنصور لما استوت الخلافة لابي جعفر المنصور قال لي يا ربيع ابعث الي جعفر بن محمد قال فقمت بين يديه فقلت أي بلية يريد أن يفعل به وان همته أن أفعل ثم أتيته بعد ساعة فقال ألم أقل لك ابعث الي جعفر بن محمد فوالله لتأتيني به ولاقتلنك شر قتلة قال فذهبت اليه فقلت أبا عبد الله أجب أمير المؤمنين فقام معي فلما دنونا من الباب قام فحرك شفتيه ثم دخل فسلم فلم يرد عليه السلام ووقف فلم يجلس ثم رفع رأسه اليه فقال يا جعفر أنت الذي آليت وكثرت وحدثني أبي عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ينصب للغادر لواء يوم القيامة يعرف به قال جعفر بن محمد حدثني أبي عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ينادي منادي يوم القيامة من بطنان العرش ألا فليقم من كان أجره على الله فلا يقوم من عباد الله الا المتفضلون فما زال يقول حتى يمكن ما به ولان له فقال اجلس أبا عبد الله ارتفع أبا عبد الله ثم دعا بمرقص غالية فجعل يقلبه بيده والغالية تقطر من بين أنامل أمير المؤمنين ثم قال انصرف أبا عبد الله في حفظ الله وقال لي يا ربيع أتبع أبا عبد الله جائزته وأضعفها قال فخرجت فقلت يا أبا عبد الله شهدت مالم تشهد وسمعت مالم تسمع وقد دخلت ورأيتك تحرك شفتيك عند دخولك اليه أشيء تأثره عن آبائك الصالحين قال لا بل حدثني أبي عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا أحزنه أمر دعا بهذا الدعاء وكان يقول هو دعاء الفرج (اللهم) احرسني بعينك التي لا تنام واكنفني بركنك الذي لا يرام واحفظني بعزك الذي لا يضام واكلأني في الليل والنهار وارحمني بقدرتك علي أنت ثقتي ورجائي فكم من نعمة أنعمت بها على قل لك بها شكري وكم من بلية ابتليتني بها قل لك بها صبري وكم خطيئة ركبتها

فلم تفضحني فيامن قل عند نعمته شكري فلم يحرمني ويامن قل عند بلائه صبري فلم يخذلني ويامن رآني على الخطايا فلم يعاقبني ياذا المعروف الذي لاينقضي أبدا وياذا الايادي التي لاتحصى عددا وياذا الوجه الذي لايبلى أبدا وياذا النور الذي لايطفأ سرمدا أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت على ابراهيم وأن تكفيني شر كل ذي شر يك أدرأ في نحره وأعوذ بك من شره وأستعينك عليه اللهم أعني على ديني بدنياي وعلى آخرتي بالتقوى واحفظني فيما غبت عنه ولاتكلني الى نفسي فيما حضرته يامن لاتضره الذنوب ولاتنقصه المغفرة اغفر لي مالايضرك وهب لي مالاينقصك ياالهي أسألك فرجا قريبا وصبرا جميلا وأسألك العافية من كل بلية وأسألك الشكر على العافية وأسألك دوام العافية وأسألك الغنى عن الناس ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم اللهم بك أستدفع مكروه ما أنا فيه وأعوذ بك من شره يا أرحم الراحمين (ويروى عن الشافعي) رضي الله عنه أنه وجه اليه بعض الخلفاء (أراه أبا جعفر المنصور) في الليل ليقتله وهو قد اشتد غضبا عليه وحنقا فلما وصل اليه الرسول قال أجب أمير المؤمنين قال وما حاجته الي في جوف الليل فقال لا أعرف لكني أمرت أن آتي بك فاستشعر الشر وخرج مع الرسول فلما انتهى الى باب القصر استأذن الرسول فأمر أبو جعفر بادخاله فتوقف ساعة وحرك شفتيه ثم دخل فقام المنصور اليه وأخذ بيده وأجلسه وجعل يعتذر اليه من التوجيه وراءه في مثل ذلك الوقت ثم عطف على الرسول وقال له لعلك روعته فقال له لا ثم أمر الشافعي بالانصراف وأمر له بمال كثير قال الرسول فعجبت مما رأيت وعلمت أن الذي نجاه ما حرك به شفتيه فتبعه الرسول وقال له بالذي استنقذك وأجاب دعاءك الا ما أعلمتني بالذي حركت به شفتيك حين أمرت بالدخول حتى أنزلك على المقام الذي رأيت قال نعم وكرامة وأنا أهدي ذلك اليك (اللهم) اني أعوذ بنور قدسك وعظمة كمالك وبركة جلالك من كل آفة وعاهة ومن طوارق الليل والنهار ومن طوارق الانس والجان الا طارق يطرق بخير يا أله يارحمن (اللهم) أنت عياذي فبك أعوذ وأنت ملاذي فبك ألوذ يامن ذلت له رقاب الجبابرة وخضعت له مقاليد الفراعنة أعوذ بجلال وجهك وكرم جلالك من خزيك وكشف سترك ونسيان ذكرك والاضراب عن شكرك أن تأتي كنفك في ليلي ونهاري ونومي وقراري وظعني واسفاري فاجعل ذكرك شعاري وثناءك دثاري لااله الا أنت تنزيها لاسمك وتكريما لسبحات وجهك أجرني من خزيك ومن شر عبادك واضرب على سرادقات حفظك وقني سيئات عذابك وأدخلني في حفظ عنايتك يا أرحم الراحمين فانك على كل شئ قدير وأنت حسبي ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الرسل من الملائكة والنبيين وعلى جميع الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم

(كان لمالك بن أنس رضي الله عنه بنت تحفظ كتاب الموطأ) فكانت تقف خلف الباب فاذا قرئ على مالك وغلط القارئ نقرت الباب فيعلم غلطه وكان له ابن اسمه محمد يجيء وأبوه مالك يحدث وعلى يده باشق فيلتفت مالك للحاضرين فيقول أما ان الادب أدب الله هذا ابني كما ترون وهذه ابنتي كما ترون (قال ابن سعيد في كتاب الزهرات) نقلت من كتاب البيهقي الموسوم بالمعالم بالكائم أولى ما حفظ الرؤساء الكرام من الاشعار أمثالهم وأولى ما حفظ من ذلك أشعار أبي دلف العجلي لان أقواله فيها تطابق أفعاله مع حلاوة منزعه وعذوبة مشرعه وأولى ما حفظ من شعره في ذلك قوله

اذا جادت الدنيا عليك فجد بها * وبادر بها من قبل أن تتفلت
فلا الجود يفنيها اذا هي أقبلت * ولا البخل يبقيها اذا هي ولت

(قال بعض الشعراء)

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
وان تولت فأحرى أن تجود بها * فالحمد منها اذا ما أدبرت خلف

(وقال آخر)

ثناء الفتى يبقى ويفنى ثراؤه * فلا تكتسب بالمال شيأ سوى الذكر
فقد أبلت الايام كعبا وحاتما * وذكرهما غض جديد الى الحشر

(قال ابن سعيد) حكى لي الصاحب كمال الدين بن العديم أن القاضي بهاء الدين بن شداد قاضي حلب الذي بلغ عند صلاح الدين وابنه الظاهر مالم يبلغه أحد من نظرائه مرض بحلب قال فشيعت في جماعة من الشبان المبتدئين في القراءة والظهور الى عيادته فعند ما دخلنا عليه قام لنا فجعلنا نحلف أن لا يفعل فقال يا سبحان الله تتفكرون في مرضي وتتعنون من أماكنكم الى منزلي ثم أبخل عليكم بقومة هذا والله غير طريق المروءة ثم قال يا أولادي لقد دخلت على كبير وأنا في سنكم فلم يحتفل بي فالى الآن ما أذكر ذلك لكم الا أسأت ذكره وندمت على وصولي اليه ولا يتجنب المعائب الا أهل التجارب قال وكنت أتردد الى مجلس كمال الدين بن يغمور وهو نائب السلطنة بالشام وكان يقوم لي كلما دخلت عليه فدخلت يوما فاذا به مضطجع فلم يقم وأخذ فيما كان يأخذ فيه فلما دخلت عليه في اليوم الثاني قام ثم جلس ثم قام ثم جلس وقال هذه الاخيرة قومة أمس كانت على دين العذر تتفضل بقبوله دون مطالبة بذكره فتعجبت من فضله وقلت ما سار لهذا الرجل ما سار في الآفاق من باطل (قال برين بن أبي حبيب) خرجت الى الصيد فبينما أنا يوما أدور على شاطئ النيل اذا أنا براهب في الماء وهو يغسل عباءة بالطين والماء فوقفت أنظر اليه فنظر الي وقال أظنك ممن يطلب الاحاديث قال قلت أجل فقال اصبر حتى أفرغ من شأني وأحدثك حديثا تجده

عندنا فانتظرته حتى فرغ ثم جاء فجلس فقال ياهذا إنا نجد فى علمنا مثلا ان الحق والباطل اصطحبا فى سفر فمشيا الى الليل فلما نزلا قال الباطل للحق اذهب فأتنا بشئ نفطر عليه قال فذهب الحق فطلب فلم يجد شيأ من حله فرجع فقال له الباطل ماصنعت قال لم أجد شيأ من حله فقال الباطل اجلس حتى آتيك قال فذهب فلم يلبث الا يسيرا حتى جاء بشئ فقال للحق كل فقال ما أراه من حله ولست بآكله فقال له الباطل بعشتك لتأتين بشئ فلم تجد شيأ فلما ذهبت أنا وجئت بما نفطر عليه حرمته على فنازعه فوثب الباطل على الحق فقتله ثم قال ان أهل الحق قد علموا أنه خرج معى ولا بد لهم أن يطلبونى به فعمد الى حطب فجمعه ثم أضرم عليه النار حتى صار رمادا ثم ذهب وتركه فجاء أهل الحق فقالوا ما فعل الحق فقال لا علم لى به فقالوا معك خرج فقال نعم ولا أدرى ما فعل فخرج أهل الحق يطلبونه حتى وقفوا على الموقع الذى أحرقه فيه الباطل فقال هذا رماد الحق وهذا موضع ناره حيث أحرقه الباطل فجمعوا رماده وصنعوا مدادا يكتبون به فهذا ما بقى من الحق فاما الحق بعينه فقد ذهب (ومن المنقول) فى مقالات الادباء دخل رجل على سلم بن قتيبة الباهلى فكلمه فى حاجة ووضع نصل سيفه على أصبع سلم بن قتيبة وجعل يكلمه فى حاجته وقد أدمى أصبعه وسلم صابر فلما فرغ الرجل من حاجته وانصرف دعا سلم بمنديل فمسح الدم من أصبعه وغسله فقيل له ألا نجيت رجلك أصلحك الله أو أمرته برفع سيفه عنها فقال خشيت أن أقطع عنه حاجته (حدث الاصمعى) قال سأل رجل أبا عمرو بن العلاء حاجة فوعده بها ثم ان الحاجة تعذرت على أبى عمرو فلقيه الرجل بعد ذلك فقال له يا أبا عمرو وعدتنى وعدا فلم تنجزه قال له أبو عمرو فمن أولى بالغرم أنا أو أنت فقال له أنا فقال له عمرو بل أنا فقال له الرجل وكيف ذلك أصلحك الله قال لانى وعدتك وعدا فأبت بفرح الوعد وأبت أنا بهم الانجاز وبت ليلتك فرحا وبت مفكرا مغموما ثم عاق القدر عن بلوغ الارادة فلقيتنى مذلا ولقيتك محتشما فمن هنا صرت أولى بالغرم منك (اجتمع) جماعة من الشعراء بباب أبى الغيث فلم يأذن لهم فكتبوا اليه

أيها ذا العزيز قد مسنا الضـ ـر ودبت به الخطوب الينا
ولدينا بضاعة مزجاة * قل طلابها فبارت لدينا
فأزل حزننا وأوف لنا الكيـ ـل بما شئت أو تصدق علينا

فأحسن اليهم وانصرفوا (وروى) أن عكرمة بن ربعى الفياض ولى أصبهان فانهب خراجها فى زوارق وقدم المدينة فتتبع بها اخوانه وأعطاهم عطايا لم يكن فيها أقل من عشرة آلاف درهم ثم سأل عن بشر بن غالب الذى تنسب اليه جبانة بشر بالكوفة فقيل له غلبه الدين حتى اختفى قال فأمهل حتى اذا أمسى حمل معه بدرة وعلى غلامه بدرة أخرى وتختا من ثياب أصبهان ثم سأل عن

منزل بشر فدل عليه فدق الباب فقال بشر لامرأته أنظري من هذا وما حاجته وما يريد قال فخرجت اليه امرأته فقالت من أنت وما حاجتك وما تريد قال أريد بشرا قالت أوما علمت أنه غائب منذ شهر قال فحلف لها بالطلاق والعتاق أنه آمن وأنه ليس له قبله شئ يكره قال فخرج بشر اليه فقال ما حاجتك قال مر بهذا المنزل يقبض قال ومن أنت قال وما عليك أن لا تعرف اسمي فقال على ذلك قال فترضى أن نوجز لك قال نعم قال أنا جابر عثرات الكرام قال انك لاهل أن يقبل منك قال فلما كان بعد قليل ولى بشر بن مروان الكوفة وجعل على شرطته بشر بن غالب ودفع اليه عكرمة بن ربعي وقال له دق يديه حتى يرد ما كسر من خراج أصبهان قال فقطع عليه العذاب وهو لا يعرفه فقالت له امرأته اخبره بما لك عنده قال تأمرين أن أتقاضى معروفي والله لا فعلت قالت فأخبرهم أنا قال ان فعلت فأنت طالق ثلاثا قالت فرأيت الطلاق أهون علي من أن تتلف نفسه فدخلت على امرأة بشر فقالت تدرون من تعذبون قالت نعم هو عكرمة قالت هو جابر عثرات الكرام قالت فدعت بالويل قال فدخل عليها بشر فقالت تدري من تعذب قال نعم هو عكرمة قالت هو جابر عثرات الكرام الذي طرقنا ليلا بما طرق قال فدعا بثيابه وسيفه ثم مثل بين يدي بشر ابن مروان وقال أصلحك الله هذا مقام العائذ قال وماذاك قال ان الذي أخبرتك أن طرقنا ليلا بما طرقنا هو عكرمة قال فماذا تريد قال أريد أن تخلي سبيله قال فانا قد فعلنا قال وأخرى أصلحك الله قال وما هي قال أن تصيره مكاني معك قال فانا قد فعلنا قال فعاشا صاحبين مع بشر بن مروان رحمة الله على جميعهم (قدم) الكوفة سعيد بن العاص عاملها لعثمان رضي الله عنه فكانت له موائد يغشاها الاشراف والقراء فكان فيمن يغشى موائده رجل من القراء فقير فقالت له امرأته ويحك أنه يبلغنا عن أميرنا هذا كرم وجود فاذكر له بعض ما نحن فيه فتعشى عنده ذات ليلة فلما انصرف الناس منه ثبت الرجل فقال له سعيد اني قد أرى جلوسك وما جلست الا لك حاجة فاذكرها رحمك الله فتعقد الرجل وتعسر فقال سعيد لغلمانه تنحوا يا غلمان ثم قال له رحمك الله انما هو أنت وأنا فاذكر حاجتك فتعقد أيضا وتعصى فنفخ سعيد المصباح فأطفأه ثم قال له رحمك الله انك لست ترى وجهي فاذكر حاجتك قال أصلح الله الامير أصابتنا حاجة فأحببت ذكرها لك قال له اذا أصبحت فالف فلانا وكيلي فلما أصبح لقي الوكيل فقال له ان الامير قد أمرني بشئ فهل جئت بمن يحمله قال لا والله ما عندي من يحمل ورجع الى امرأته وجعل يعذلها ويلومها وقال قال لي وكيله جئت بمن يحمل وما هي الا قوصرة من تمر أو قفيز من بر ولو كانت دراهم أو دنانير أعطانيها بيده قالت ويحك ما كان من شئ فقوتناه فمكث أياما ثم لقيه الوكيل فقال له ويحك أين تكون أخبرت الامير أنه ليس عندك من يحمل فأمرني أن أوجه معك من يحمل فوجه معه بثلاثة من السودان

يحمل كل واحد منهم بدرة على عاتقه حتى أوردوها منزله فأطلق وكاء بدرة منها ووهب لهم منها دريهمات وقال انصرفوا قالوا الى أين ما حمل له مملوك قط هدية فرجع فى ملكه (امتدح) نصيب الشاعر عبدالله بن جعفر فأمر له بخيل وابل وأثاث ودنانير ودراهم فقال له رجل أمثل هذا الاسود يعطى مثل هذا المال فقال عبدالله بن جعفر ان كان أسود فان شعره أبيض وان ثناءه لمروى وقد استحق بما قال أكثر مما نال وهل عطيناه الا ثيابا تبلى ومالا يغنى ومطايا تنضى وأعطانا مدحا يروى وثناء يبقى (دخل) ابن السماك على محمد بن سليمان بن على فرآه معرضا عنه فقال مالى أرى الامير كالعاتب على قال ذلك لشئ بلغنى عنك كرهته قال اذن والله لا أبالى قال ولم قال لانه ان كان ذنبا غفرته وان كان باطلا لم تقبله (خطب) أبو جعفر المنصور يوما فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس اتقوا الله فقام اليه رجل من عرض الناس فقال أذكرك الذى ذكرتنا به يا أمير المؤمنين فأجابه أبو جعفر بلا فكرة ولا روية سمعا سمعا لمن ذكر بالله وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذنى العزة بالاثم لقد ضللت اذا وما أنا من المهتدين وأما أنت أيها القائل فوالله ما الله أردت بها ولكن ليقال فعوقب وصبر وأهون بها لو كانت وأنا أنذركم أيها الناس أختها فان الموعظة علينا زلت ومنا أنبتت ثم رجع الى موضعه من الخطبة (حج) عتبة بن أبى سفيان سنة احدى وأربعين والناس قريب عهدهم بالفتنة فصلى بمكة الجمعة ثم قال أيها الناس انا قد ولينا هذا المقام الذى يضاعف فيه للمحسنين الاجر وعلى المسيئ فيه الوزر ونحن على طريق ما قصرنا فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا فانها تنقطع دوننا ورب ممتن حتفه فى أمنيته فاقبلوا العافية ما قبلناها منكم وايا كم ولو فاتها أتعبت من كان قبلكم ولن تريح من بعدكم وأنا أسئل الله أن يعين كلا على كل فصاح به اعرابى أيها الخليفة فقال لست به ولم تبعد فقال يا أخاه فقال سمعت فقل فقال تالله ان تحسنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسنا فان كان الاحسن لكم دوننا فما أحقكم باستتمامه وان كان منا فما أولاكم بمكافأتنا رجل من بنى عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ويقرب اليكم بالخؤلة قد كثره العيال ووطئه الزمان وبه فقر وعنده شكر فقال عتبة أستغفر الله منكم وأستعينه عليكم وقد أمرنا لك بغنائك فليت أسراعنا اليك يقوم بأبطائنا عنك (تنازع) ابراهيم بن المهدى وبختيشوع الطبيب بين يدى أحمد ابن أبى دؤاد فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السواد فأربى عليه ابراهيم وأغلظ له فى القول فغضب لذلك بن أبى دواد وقال يا ابراهيم اذا نازعت فى مجلس الحكم بحضرتنا أمرا فلا ترفع عليه صوتا ولا تشر بيدك وليكن قصدك أمما وطريقك نهجا وريحك ساكنة وكلامك معتدلا ووف مجالس الخليفة حقها من التوقير والتعظيم والاستكانة والتوجه الى الحق فان هذا أشكل بك وأجل بمذهبك فى محتدك وعظيم خطرك ولا تعجلن فرب عجلة تهب ريثا

والله يعصمك من الزلل وخطل القول والعمل ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل ان ربك حكيم عليم فقال ابراهيم أمرت أصلحك الله بسداد وخضعت على رشاد ولست عائدا لما يثلم قدرى عندك ويسقطنى من عينك ويخرجنى من مقدار الواجب الى الاعتذار فها أنا معتذر اليك من هذه البادرة اعتذار مقر بذنبه باخع بجرمه لان الغضب لا يزال يستغزنى بموادة فيردنى مثلك بحلمه وتلك عادة الله عندك وعندنا فيك وحسبنا الله ونعم الوكيل وقد خرجت من هذا العقار لبختيشوع فليت ذلك يكون وافيا بارش الجناية عليه ولم يتلف مال أفاد موعظة وبالله سبحانه التوفيق (بعث) زياد الى معاوية برجل مخالف من بنى تميم فلما مثل بين يديه قال له أنت القائم علينا المكثر لعدونا قال يا أمير المؤمنين انما كانت فتنة عم عماها أو أظلم دجاها نرى فيها الوضيع وخف الحليم والرفيع فاحتدمت وأكلت علينا وشربت حتى اذا انحسرت ظلماؤها وانكشف غطاؤها آل الامر الى ما آله وصرح عن محضه وارتفع العبوس وتابت النفوس فتركنا فتنتنا ولزمنا عصمتنا وعرفنا خليفتنا ومن يجد منا بابا لم يرد الله به عقابا ومن يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما فعجب معاوية من فصاحته واستغرب حسن اعتذاره وعفا عنه وأحسن اليه (لما) غزا الاسكندر دارا بن دارا وكان دارا قد ملك قومه وأهل مملكته وأحبوا الراحة منه فلحق كثير من وجوه أصحابه وقواده الى الاسكندر وأطلعوه على عورته وقووه عليه فلما التقيا ببلاد الجزيرة اقتتلا سنة كاملة ثم وثب على دارا جماعة من قومه فقتلوه وكان الذى فعل به هذا حاجباه فلما سيق رأسه الى الاسكندر أمر بضرب أعناق الذين ساقوه وقال هذا جزاء من اجترأ على ملكه (قال الاصمعى) كان لى صديق من أهل الادب والمروءة والحسب قد أتى عليه ثلاثة أعصار مشتهر بحفظ العلوم والاخبار والملح والاشعار وكان لا تسكن حركاته ولا تتوفر لذاته الا فى قضاء حوائج الاخوان وادخال السرور على من عرفه من الاخوان فألهانى ما شهدت منه عما وصف لى عنه فقلت له يوما ما هذا الذى تفعله وما قوالك على ما تصنعه فقال يا أصمعى انى شهدت الايام فى بدأ اخضرار عيشها ورأيت تصرفها وحلبت الدهر أشطره ولهوت فى ريعان الشباب وجالست العلماء وصحبت أهل التصابى فما طربت بما سمعت ولا ابتهجت بما رأيت كابتهاجى لنشر حرمة وشفاعة شافع فى طلب شاكر يرجو بذلك الحياة فى العاجل وجزيل الثواب فى الآجل وانى لأتشوق الى الرجل الاديب تشوق المريض الى الطبيب وأطرب اليه كتطرب المحب الى الحبيب وأنشد

واذا الاديب مع الاديب تحادثا * كانا من الآداب فى بستان
لا شئ أحسن منهما فى مجلس * يتطاعمان جواهرا بلسان

(ذكر) أن المتوكل بن الافطس فر اليه شخص من بني هود مغاضبا لابن عمه ملك سرقسطة فآواه وأحسن اليه ثم اختبره فرآه أهلا للولاية فولاه فقال له أحد وزرائه كثيرا هذا في تغيير قلب قريبه يا مولاي تسخط قادرا في حق عاجز وتفرط فيمن تحتاج اليه كما يحتاج الينا وتغتبط بمن لا تحتاج اليه بل هو موكل علينا فقال له المتوكل الذي قلت حق ولكن كيف يكون اقتناء المكارم (روى) أن أنوشروان غضب على وزيره بزرجمهر فسجنه في بيت كالقبر وصفده بالحديد وألبسه الخشن من الصوف وأمر أن لا يزاد في كل يوم عن على قرصين من الخبز وكف ملح جريش ودورق ماء وأن تثقل ألفاظه اليه فأقام شهورا لا تسمع له لفظة فقال أنوشروان ادخلوا عليه أصحابه وأمروهم أن يسئلوه ويفاتحوه الكلام وعرفوه فدخل اليه جماعة من المختصين به فقالوا له أيها الحكيم نراك في هذا الضيق والحديد والشدة التي دفعت اليها ومع هذا فان سحنة وجهك وصحة جسمك على حالها لم تتغير فما السبب في ذلك فقال اني عملت جوارش من ستة أخلاط فآخذ منه كل يوم شيأ فهو الذي أبقاني على ما ترون فقالوا فصفه لنا فعسى أن نبتلي بمثل بلواك أو أحد من اخواننا فنستعمله أو نصفه له فقال الخليط الاول الثقة بالله والثاني أن كل مقدر كائن والثالث الصبر خير مما استعمله الممتحن والرابع ان لم أصبر فأي شيء أعمل ولم أعن على نفسي بالجزع والخامس قد يمكن أن أكون في شر أصعب مما أنا فيه والسادس من ساعة الى ساعة فرج . (من كتاب عين الادب والسياسة)

(الباب الثاني في الاخلاق)

(فصل) في مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم وبوجبانه من لوم (فنقول) أما الكبر فيكسب المقت ويلهي عن التآلف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوءا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال ازدشير بن بابك ما الكبر الا فضل حق لم يدر صاحبه أين يذهب به فيصرفه الى الكبر وحكي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب أما تعرفني فقال بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال